عن سيد الدور المسحور

منير عامر

تمتد المعرفة بيني وبين دكتور مصطفى الفقى الى أواسط الستينيات وكان واحدا من خيرة اللامعين فى منظمة الشباب الناصرى هؤلاء الذين كان بيني وبينهم مسافة من عدم القبول نظرا للهجة الترفع على بقية خلق الله وكنت أرى أن كلا منهم يدخل مطبعة ليخرج منها مقلدا صوت الزعيم جمال عبدالناصر.

وكنت واحدا من المقربين من مكتب الرئيس ذات نفسه فلم يكن بيني وبين افكاره أى مساحة من خلاف ولكني كنت أكره أن يذوب الشخص في بوتقة الزعيم مهما تكن عظمة الزعيم. وكان أقرب المقربين من قلبي اثنين هما السيد شعراوى جمعة وزير الداخلية الذى أحببت تجربته فى إدارة محافظة السويس ولم أنس له يوما أنه قام بتحويل ٦ ملايين جنيه من بند بناء كورنيش على شط القناة الى إقامة مجار ومحطة مياه شرب لكل مدينة السويس. فقد أمن أن كوب الماء النظيف وسهولة صرف المجارى أكثر أهمية من كورنيش للتريض. وكان الشخص الثانى هو السيد محمد زغلول كامل مدير الخدمة السرية لجهاز المخابرات وهو من ساندنى فى مواجهة شرسة مع سفير مصر فى باريس فى ذلك الوقت فقد كان ذلك السفير يطلب منى أن أقوم بنشر أخبار غير حقيقية ليؤكد أهميته فى موقعه وكشف زيف أخباره ضابط المخابرات المصرى بالسفارة محمد شكرى حافظ.

كان العمر أربعة وعشرين عاما وكانت هامة الثقة بالنفس تملك كرامة التواضع. ودارت الأيام ليتم تأسيس حزب طليعة الاشتراكيين داخل الاتحاد الاشتراكى وعندما عرض على شخص دخول هذا الحزب اعتذرت بحقيقتى التى لا تملك قدرة على الإذعان على طاعة الأوامر فتمردى فوق الاحتمال.

فى ذلك الوقت قابلت مصطفى الفقى الطالب المتفوق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية وكنت مندهشا من فرط قدرته على امتصاص خبرات أساتذتى بداية من دكتور بطرس غالى ولفيف من العمالقة من أساتذة العلوم السياسية. وكان يملك هذا التواضع الرصين الذى يتيح له الاحتفاظ بشخصيته المستقلة.

وبعد التخرج سألنى سؤالا واحدا (هل أعمل بالصحافة أم التحق بوزارة الخارجية؟) أجبته بأن العمل الدبلوماسي يحتاج الى قامات مثله لها من التواضع والثقة بالنفس ما يقتحم بهما أى مشكلة دبلوماسية معقدة.

وعندما التحق بالخارجية كان أول عمل له تحت قيادة السفير جمال منصور الذى سبق أن أهدى تنظيم الضباط الأحرار الاسم فهو من اختار هذا الاسم لذلك التنظيم وكان يتولى طباعة المنشورات السرية الخاصة بتنظيم الضباط الأحرار ولكنه اختلف مع الرئيس عبدالناصر فى تقييمه لشخصية أنور السادات وكانت النتيجة هو ابتعاث جمال منصور للعمل بالخارجية. ثم جاءت فترة انتخابات بالوزارات لقيادات العمل السياسى ورشح جمال منصور نفسه كأمين للجنة الاتحاد الاشتراكى بوزارة الخارجية. لكن تم الدس له عند قيادات التنظيم فتم استبعاده من الترشح ونقله من وزارة الخارجية الى وزارة السياحة.

مضت ثلاثة أيام وجيل الدبلوماسيين الشباب يغلى بالغضب. وحاول جمال منصور أن يتواصل مع كل من يعرف لعله ينقذ نفسه من هول الابتعاد عن وزارة الخارجية. ووصل الأمر لى شخصيا فذهبت الى السيد شعراوى جمعة قائلا له الى متى سنظل غير قادرين على الاستفادة من أهل الصدق والأمانة بالعمل السياسى؟ ويبدو أن شعراوى جمعة كان على معرفة دقيقة بقدرات السفير جمال منصور ولكن كان لابد من استئذان جمال عبد الناصر فى إلغاء إبعاد جمال منصور من الخارجية الى السياحة.

مرت ثلاث ساعات ليأتينى صوت شعراوى جمعة قائلا يمكنك أن تهنئ جمال منصور على إلغاء قرار إبعاده عن الخارجية. وبعد ذلك بدقائق جاءنى صوت السفير جمال منصور يشكرنى مؤكدا أنه حاول الاتصال بمعظم من لهم قدرة على تغيير مسار القرارات السياسية لكنهم تهربوا منه.

قلت للسفير جمال منصور تعلمنا من جيلك الشجاعة فى إبداء الرأى فكيف تنكر علينا الدفاع عنك كشخص أمين على فهم مستقبل هذا الوطن.

فى ذلك الوقت كان مصطفى الفقى موجودا بالهند يشرب خلاصة ثقافتها فهو لم يكن المستقر فى عاصمة دون أن يشرب تاريخها وأحوال مجتمعها وعمق ثقافتها. ولم يغفل فى الوقت نفسه عن التواصل مع صداقاته الرصينة بداية من دكتور بطرس بطرس غالى الواعى لحركة الشعوب بمختلف اتجاهاتها وأسامة الباز هذا الدبلوماسى الرصين الذى يجيد التواصل مع القيادات دون أن يكون له أى مطمع لأى منصب مهما علا. ثم ينتقل مصطفى الفقى من الهند الى لندن ليمر بدراسة واحدة من أعقد المشكلات الموجودة تحت جلد التاريخ المصرى ألا وهى المسألة القبطية فيتخصص فى دراستها عبر التاريخ المصرى ويرسم خيوط التواصل فى النسيج المصرى رغم اختلاف بعض من الفهم الإسلامى والفهم المسيحى لحقائق التاريخ المصرى. وكان ذلك فى أثناء وجوده بلندن لتمر عليه موجات من الشخصيات ذات الأثر فيما مر بنا من ظروف. ها هو يعمل تحت قيادة السيد كمال رفعت وهو من كان سفيرا لنا فى لندن وهو من بدأ العمل السياسى بقيادة الفدائيين فى منطقة قناة السويس وهو قد أشرف على خطف أحد أفراد الأسرة المالكة البريطانية فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر ثم عمل فى قاع المجتمع المصرى كأحد قيادى الكشف عن المؤثرين فى الحركة العمالية المصرية. وليتواصل بعد ذلك فى العمل تحت قيادة الجسور سعد الشاذلى هذا النبيل الذى رسم خطوات عبور قناة السويس وتحرير اثنى عشر كيلو من أرض سيناء العزيزة وراقب كيفية إدارة الصراع المصرى ـ الإسرائيلى من خلال صداقته العميقة مع أسامة الباز وليعود الى مصر حاملا برسالة الدكتوراه ليؤثر بالتواضع الجسور فى كل من يلتقى به ومعه ويلتفت لمواهبه الرئيس الراحل محمد حسنى مبارك الذى يختاره مديرا لمكتب المعلومات. وقد قرأ مبارك فى شخصية مصطفى الفقى هذا التواضع الذى له شجاعة اقتحام أى مشكلة مهما تعقدت ولا ينجو من مؤامرات الدس الصغيرة التى توجد دائما فى قصور الحكم. فيعود بعد سنوات الى العمل بالخارجية كسفير لنا بالنمسا ليبنى هناك مقرا يليق بمصر فى قلب العاصمة فيينا وعندما يعود الى الوطن يرأس المعهد الدبلوماسى فيهب الأجيال الشابة من الدبلوماسيين خلاصة خبراته ذات العنق والوعى والفهم للتاريخ.

عمق محبتى لمصطفى الفقى وتجربته دفعانى للترحيب بمذكراته ذات الفهم المترفع لحقائق حياتنا السياسية وتلك سطور من الامتنان لجهد هذا الرجل الجسور.